

إميل

ألف هذا الكتاب «جان جاك روسو» ونقله إلى العربية الدكتور نظمي لوقا.

والكتاب، كما يقول الدكتور أحمد زكي في مقدمته يعتبر فاصلاً بين عصرين في التربية: التربية القديمة والتربية الحديثة التي يراها «روسو» تتمثل في الاهتمام بثلاث.

طبيعة الطفل ثم المعلم ثم الحياة نفسها ولهذا ينادى بأن وظيفة التربية (إزالة الصعوبة وكل ما يعوق الطبيعة البشرية الخيرة عن النمو الطبيعي).

وقد قسم «روسو» موضوعه إلى خمسة كتب يتحدث كل منها عن مرحلة من المراحل.

* ففي الكتاب الأول يتحدث «روسو» عن تربية الطفل منذ ولادته حتى سن الخامسة.

* والكتاب الثاني من الخامسة حتى الثانية عشرة

* والكتاب الثالث عن مرحلة المراهقة

* والكتاب الرابع عن الشباب

* والكتاب الخامس عن تربية البنت

والخطوط العريضة في فن التربية عند روسو تتمثل في:

* أهمية منح الطفل الحرية منذ ولادته فهو لا يريد اللقائف والأربطة التي تقيد الطفل بل يترك حراً في حضن الطبيعة.. في الريف حيث الأنوار الطبيعية: القمر والنجوم، لا الأنوار الصناعية التي تزعج الإنسان في المدن.

يقول «روسو»: (تقولون إن أول صوت يصدر عن الطفل، هو البكاء... إنكم تكرهونه على ذلك بما تكبلونه به من قيود. وتنزلونه به من عذاب فلا يجد شيئاً لديه حراً إلا صوته. فكيف لا يستخدمه ليجأ بالشكوى!)

إن «روسو» هنا يذكرني بشاعرنا ابن الرومي في بيته:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

* أن نبتعد عن الوعظ في تعليم الطفل الأخلاق بل القدوة الحسنة وتجنبه الشر وتركه يوازن بين الأشياء ويستقي دروسه من طبيعته ومن الطريف قول روسو أو الطفل حتى الخامسة عشرة يجب ألا يقرأ إلا كتاباً واحداً هو كتاب الطبيعة لأن الكتب كما يقول روسو (عذاب للطفولة وألم لها)

وفي رأيي أن هذا الرأي فيه شطط.

بل يعلم الطفل القراءة والكتابة لأن التعليم في الصغر كالنقش في الحجر كما يقول تراثنا.

نعم نبدأ بالتعليم الموضوعي للطفل بالصورة.. بلغة المنظر.. نبدأ. كما يقول «هكسلي» بالكرافت أى التشكيل لاكتشاف المهارات والميول.

نجعل الحضانه للعب الحر.. مدرسة اللعب كما يسميها الانجليز.

لقد نص المبدأ السابع من المبادئ العشر الواردة بالإعلان العالمى لحقوق الطفل سنة ١٩٥٩ (إن لكل طفل الحق فى الحصول على قدر إجبارى من التعليم مع قدر وافر من فرص للعب والترفيه)

ويركز روسو على أهمية تدريب الحواس منوها بقصة روبنسون كروسر الذى اعتمد على نفسه وتعلم الحياة بالحياة فاحساسات الطفل عنده هى المادة الأولى لمعارفه. وتقديم المحسوسات إليه بنظام مناسب هو بمثابة إعداد الذاكرة لإمداده بتلك المحسوسات يوماً ما بذلك الترتيب نفسه.

وهو ينادى بتعليم الدين فى مرحلة الشباب وأرى أن يطبع الطفل على حياة الدين والسلوك قبل هذا بكثير أى منذ الطفولة.

لقد ذاع كتاب روسو كما يقول الدكتور أحمد زكى لأنه نادى فيه بالمساواة بين الأفراد وامتنح الرجل العادى ورفع من شأنه واعتمد على إثارة خيال الناس وعواطفهم التى كان لا يعبأ بها الكتاب- فى اوربا- من قبل.

وقد اخترت هذا الكتاب فى زمن الشعارات وفى توقبت ارتفاع الصبحة إلى (إعادة بناء الإنسان) دون أن يقول أحد كيف بنى الإنسان.

لم يتحدث أحد عن العودة إلى الطبيعة الأم.

لم يتحدث أحد عن العودة إلى الدين فى جوهره النقى أى الضمير والتفكير والمحبة والخير.

لم يتحدث أحد عن كرامة الإنسان التى تستباح فى الداخل بالإعلام وفى الخارج بالديون والمعونات المخططة والمشروطة وهى أشد سفكا وسفحا من الديون.

أقدم كتاب روسر مع تناقضات فيه، ولكن نحاول أن نخرج بالايجابيات وهى كثيرة.

وهو كتاب يلتقى مع كثير مما يلزمتنا. ولعل صدور هذه الآراء من روسو يجعلها أكثر قبولا عند ضحايا التفريب فلا تنهم بالسلفية أو الرجعية.

لقد جعل روسو تلميذه، يكتسب جميع المعارف العلمية باكتشافها ابتداء.

وأقول إن الطبيعة معلم أكبر ولكن يقوم إلى جانبها معلمون آخرون هم هداة الإنسانية وموهوبها وعباقرتها فى الفنون والعلوم وإلا إذا كان كل إنسان يبدأ من الصفر فلن تتقدم البشرية.

ومن المفارقات الطريفة كما يقول الدكتور نظمى لوقا (إن روسو الشاعر صاحب انجيل الحرية فى التربية والسياسة، يرتد سلفيا، محافظا، بل رجعيا حين يتحدث عن المرأة. فهو لا يرى لها حقافى تربية كترية الفتى، وإنما تربى الفتاة لتكون خادمة!!! للفتى، تمسح على آلامه، وتهىء له حاجته من ملبسه وطعامه)!!

أليس عجيبا أن «روسو» الذى يجعل التربية حجر الأساس فى بناء الإنسان، يحجم المرأة ويغل حياتها مع أنها هى عماد التربية وقد اتجه إليها بالخطاب فى الكتاب الأول وقد راعه ما يزرع تحت إنسان عصره من السبقيات والسلطان، والضرورات، والقذوة، وسائر الظروف الاجتماعية التى تستغرقه وتخنق فطرته ثم لا تعوضه عنه شيئا لنا الله نحن أبناء القرن العشرين.

عند هذه النقطة، تعلق أمل «روسو» بالمرأة إنى اتجه إليك بالخطاب أيتها الأم الحصيفة الحنون التى عرفت كيف تنكبين الطريق المطروق وتحمين النبتة البائقة من عتو المواضعات البشرية.

ومن أجمل قوله:

لو استطاع الناس أن يستيقوا فى ظل الزواج حب «الخطوبة» لأقاموا لهم فردوسا أرضيا، ولم أر أحدا أفلح من قبل فى هذا.

إن الحب عاطفة يقتلها الإكراه.. والمتعة شىء لا ينال بالأمر ولا يخضع للقهر فأحذرک أيها الشاب من أن تجعل أقدس المداعبات وأجملها ضربا من الواجب تخضع له المرأة عن غير رغبة قياما بتعهداتها الزوجية إن الرغبة المتبادلة هى اساس الحق الزوجى.

وفى الزواج لا تكون لذة الجسد شرعية إلا حينما تكون متبادلة بين الزوجين، وهيهات أن يكون الزواج مبررا للاغتصاب فليس إلا اغتصابا أن ينال الرجل لذته من زوجته وهى عنه راغبة.

وإذا استثنينا هذه (الحسنة) لروسو فإنه ظلم المرأة ظلما كبيرا.

ألم أقل إن أعظم حضارتين رفعتا شأن المرأة، بالاحترام والتكريم:

* الحضارة المصرية القديمة

* الحضارة الإسلامية

ويبدو أن المرأة ليست وحدها المظلومة مع «روسو» فإنه يناصب الأطباء، العداء، أيضا نسمع معا إحدى غرائبه:

الجسم الهزيل يضعف الروح. ومن هنا يأتى سلطان الطب الذى أراه أشد إيذاء من جميع الأمراض التى يزعم شفاءها. وأنا شخصا لا أعرف من أى مرض يشفيها الأطباء إن الجانب الوحيد المجدى من علم الطب هو علم الصحة بيد أن علم الصحة. فضيلة أكثر منه علما فالاعتدال والعمل هما الطبيبان الأوحدان الحقيقيان للإنسان.

وأكثر من هذا قال «روسو»!!

ويلمح «روسو» الفروق فى الحياة فيقول (إن الشخص الطبيعى يعيش لنفسه، فهو الوحدة العددية، وهو الكل أيضا بالإطلاق ولا يتعلق وجوده إلا بنفسه وبمنظرائه أما المواطن فهو وحدة

سرية. هو بسط مقامه الوطن.. وقيمته ليست في ذاته بل تتعلق بالكل. وينسبته إلى ذلك الكل الذي هو الهيئة الاجتماعية.

ويعرف «روسو» الحياة بقوله:

(الحياة ليست نفسا يتردد بل هي نشاط، واستخدام للجوارح والحواس والوظائف الحيوية، من سائر عناصر كياننا. وليس أعظم الناس نصيبا من الحياة من سلخ فيها سنوات أطول، بل من مارسها أكثر من سواه).

ويغضب روسو من اللاتي يتقاعسن عن رضاعة أبنائهن فيقول في ثورة غضب (اعتقد انه خير للطفل ان يرضع لبن أم صحيحة البنية من أن يرضع لبن أم مدللة. إذا فرض أن هناك ما يخشى أن يلحقه منها أدهى مما ورثه من دمانها). وحجته في هذا وهي صادقة أن الأم ليست، الثدي (إن امرأة غيرها أو دابة، قد تمتحه اللبن الذي ترضن هي به عليه، أما حنان الأم فلا يستعاض عنه) بل يعتقد «روسو» أن (الحرمان من لبن الأم هو الأصل الذي نبعت منه جميع الشرور).

ويقول (جاذبية الحياة البينية هي أفضل ترياق للأخلاق السيئة وتغشى ضجة الأطفال التي يضيق بها البعض محببة، ويزداد إعزاز الآباء والأمهات بمثانة الرباط الزوجي بينهم. ومتى ارتدت النساء أمهات ارتد الرجال سريعا آباء وأزواجا).

وينعى «روسو» على بعض الأمهات فرط التدليل إذ لا تدري الواحدة منهن (أنها بتلك الشفقة تهيل على رأسه النكبات إذ يظل ضعيفا ويشب ضعيفا فهن يغمسن أبناءهن في الرخاوة بذلك التدليل فيحكممن عليهم بالعذاب المستمر حين يواجهون الحياة من غير جلد على المقاومة).

ويقول:

(راقبوا الطبيعة وأنظروا كيف تبين لكم السبيل. فإنها تعمل على تمريس الأطفال بالأحداث والأشياء وتعلمهم منذ البداية كيف يكون الألم.. فالأسنان تنبت لهم بالحمى. والسعال الطويل يخنقهم. والديدان تعذبهم. والخمائر الطفيلية تقسر عليهم وتعرضهم لكثير من الأخطار.. ولكن متى مرت المحنة يكون الطفل قد اكتسب مناعة). إن الألم الأعظم، عذاب الروح وعنده أن الشخص الذي لا يعرف الألم لا يمكن أن يعرف الحنان الإنساني ولا عذوبة الرحمة والشفقة لأن قلبه لن يتحرك لشيء ولن يكون اجتماعيا.

ويحذر «روسو» من كثرة الأوامر والنواهي في عالم الطفل حتى لا تطبع نفسه على التحكم أو الاستعباد سواء أكان أمراً أم مأموراً.. وحتى لا نبذر في قلبه الصغير، بذور الشر ثم تملأ الدنيا شكوى من شره.

ومن الطريف قول «روسو»: (مادامت العبودية المدنية والاجتماعية تبدأ من سن الرشد، فلماذا نتمجّل البلاء بأن نرهب الطفل منذ حدوثه بالعبودية الشخصية والرق الذاتي؟).

وينحو «روسو» باللائمة على الأمهات والآباء الذين يتعللون بضيق الوقت عن تعليم أطفالهم وتربيتهم مقارنة بما يقوله «بلوتارك» عن أغسطس وهو امبراطور كيف كان يقوم على تعليم أحفاده بنفسه الكتابة والقراءة والسباحة ومبادئ العلوم وكيف كانوا يحفون بعرشه على الدوام يقول «روسو».

(ما من صورة تحرك القلوب وتأسرها كصورة الأسرة)

ويؤمن «روسو» بالريف فعنده، المدن، تلتهم ساكنيها وتفكك بهم، وبعد أجيال من حياة المدينة يشيع الانحلال الصحي وتصاب السلالة بالهزال أو العقم ولا يمكن تجديد حيويتها إلا عن طريق الريف.

وينادي «روسو»: (لا تجادلوا الأطفال) فلو أن الأطفال ذوو إدراك وعقل حقاً لما كانوا بحاجة إلى تربية).

كما ينهى عن السماح للطفل بضرب أحد ولو كان خادمه لأن (من يضرب الناس وهو صغير يقدم على قتلهم وهو كبير).

ويعالج «روسو» الخوف عند الأطفال بالدعوة إلى تنشئة الطفل متعوداً على الظلام والسلوك في الليل. واستعمال رجله ويديه مهما كانت شدة الظلام من غير وجل فإن مخيلته تكون ممتلئة بالألعاب البهيجة التي اقترنت بالظلام في حديثه. لن تخيل إليه الأشياء المفزعة. ولن يفزع الليل. بل يحبه ويثير في نفسه الطمأنينة والابتهاج.

ويدعو «روسو» إلى تعليم الطفل الرسم ودراسة الهندسة عن طريق القياس الدقيق للأشياء والأشكال ثم البحث عن العلاقات بينها ويعترض «روسو» بشدة على تعليم الهندسة بعرض منطوق النظرية ثم البحث بعد ذلك عن إثباتها.

ويدعو «روسو» أيضا الى تنمية الملاحظة أثناء اللعب عن طريق العين والأذن والأصوات لتقدير المسافات.

كما يدعو «روسو» إلى تعويد الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواه وبذلك يتعود ألا ينقاد انقيادا أعمى في أعماله وأفكاره. وننمى فيه روح المبادرة.

ويدعو «روسو» إلى تعلم الحرف. وليس الغرض عنده من تعلم المهنة، التكسب بها حتماً، بل الغرض الأكبر القضاء على المزايم الخاطئة التي نفشت بين الناس بصدد العمل اليدوى. ثم يجتنب روسو الى المبالغة كعادته فيقول:

(إنى أريد (للطفل) أن يتعلم مهنة شريفة نافعة، لا مهنة ترف. لا أريد له أن يكون مطرزا أو مذهباً أو موسيقياً أو ممثلاً أو مؤلفاً!- روسو كاتب مؤلف- بل أفضل أن يكون إسكافا على أن يكون شاعراً!!

ويبدو أنه أحس بوقع ما يقول فأجاب على سؤال صامت: (ولم لا؟ أليس القيصّر بطرس الأكبر كان يعمل بيديه في منشّر الخشب بالأجر كأى عامل، ويقرع الطبل فى فرق جيشه كأى جندى؟)

ولكن كلام «روسو» هذا مردود عليه بأن الأنبياء زاولوا أعمالا يدويه مختلفة قبل الرسالات ولكن القرآن الكريم استهل بالدعوة إلى القراءة وأقسم بالقلم.

(أقرأ باسم ربك الذى خلق).

(ن والقلم وما يسطرون).

ويلوم «روسو» علم التاريخ على إبرازه الحوادث أكثر مما يبرز الرجال.

ولو عاش «روسو» في عصرنا لرأى كيف تبرز المدرسة المصرية الأشخاص أكثر مما تبرز الحوادث فالهرم بناء خوفو. وحطين انتصر فيها صلاح الدين ونسيت أن الهرم بناء المهندس والفلكي والجيوولوجي والإداري البارع الذي قاد هذه السيمفونية الفائقة.

ونسيت أن النصر في حطين كان وراءه موقع مصر الفريد وطاقاتها في الرجال وقدراتها في المال ووراثاتها الحضارية وإيمان شعبها الذي وقف وراء المعركة.

وأروع ما في كتاب «روسو» على الإطلاق، لحظات نقاء... وقفت طويلا عند هذه الكلمات.

(إن أعرف الله في كل مكان من خلال مخلوقاته. أحس به في نفسي وأراه في كل ما حولي. أما كنهه وحقيقته وماهيته فخارج نطاق عقلي. إنها مسائل تند عن ادراكي ولا يستطيع عقلي الكليل أن يجلو غوامضها.

وبسبب هذا العجز آليت على نفسي ألا أفكر إطلاقا في طبيعة الله، إلا في حدود إحساسي بما بيني وبينه من علاقات. ولكن أفكاري في ذلك الموضوع خاضعة على الدوام، أستشعر لها الاضطراب والرعدة. فخلق بنا أن نعلم أن الله ليس كمثله شيء. وليس تقصيرا منا ألا نفكر في ماهيته، ولكن التقصير كل التقصير أن نفكر في ماهيته بغير ما يحق لها من جلال.

ويتكلم «روسو» عن «الذوق» فيرى أن الذوق فطري في جميع الناس ولكنه ليس على قدم المساواة لدى الجميع.. فالحساسية والثقافة والبيئة لها آثارها. وكلما اتسعت آفاق البيئات التي يرتادها الإنسان، اتسعت أمامه الفرص لعقد المقارنات.

و «روسو» يرى (حسن الذوق يقترب بحسن الأخلاق)

ويطرح «روسو» سؤالا:

- هل من الواجب تنوير الأطفال منذ وقت مبكر بخصوص الأمور التي جرت العادة على إخفائها عنهم؟

وهو يجيب:

* إن هذه المعلومات الجديدة غاية في الأهمية. وينبغي أن تكون جادة واضحة ونظيفة.

ويجب عند المصارحة أن أتخير المناسبة. والزمان والمكان، وأن أحدثه في الموضوع ببساطة وورزانة، ولكن ليس في جفاف.

وعندما شارف الكتاب، النهاية ذهب «روسو» إلى الريف للبحث لربيبة اميل. عن الحب والسعادة والطهر في صورة فتاة نموذجية نسميها من الآن كما يقول (صوفى).

إنها صورة للفتاة في نظره ولاتهم الأسماء وهذه هي الصفات التي خلعها على الفتاة:

* صوفى طيبة المولد، سليمة الفطرة ذات قلب شديد الحساسية.

* ليست صوفى بالجميلة، بيد أن الرجال ينسون في محضرها جميلات النساء..

* صوفى تحب الزينة والأناقة.

* إنها ذات حياء في ملبها.

* صوفى ذات مواهب طبيعية.

* وهي ذات حذق في كافة أعمال المنزل.

* وصوفى ذات دين.

لو رشح «روسو» نفسه لفاز بالأغلبية بين أصوات الرجال. أغلبية حقيقية بدون حاجة إلى نظام القوائم ليفوز.

ويبدو وأن عقدة (الأجنبي) عند الفرنسيين أيضا فكاتبهم «روسو» يقول:

(إن الباريسى يعتقد أنه يعرف البشر عموما.. مع أنه لا يعرف إلا الفرنسيين وهو في مدينته الحافلة بالأجانب ينظر إلى الأجنبي كأنه ظاهرة خارقة لا نظير لها في الدنيا. ومن رأى أهالى الطبقة الوسطى في تلك المدينة الكبيرة وعاشرهم سيدرك مدى ما هم عليه على الرغم من ذكائهم من غباوة وقلة فطنة. والغريب أن كل واحد منهم قرأ عشر مرات على الأقل وصف بلد ذلك الأجنبي الذي يدهشه كل تلك الدهشة).

ومن محامد «روسو» قوله في معارضة «الرق» وليس بمستغرب:

(هل يستطيع رجل شرعا أن يبيع نفسه إلى رجل آخر بلا قيد ولا شرط اطلاقا.. بمعنى أنه يتنازل عن شخصه له، وعن حياته وعن عقله وعن ابنته.. وعن كل أخلاقيات أفعاله - أى يكف عن الوجود من غير أن يموت - مع أن الطبيعة كلفتها مباشرة بحفظ ذاته. ومع أن ضميره وعقله يوجبان عليه ما يفعله وما يمتنع عنه.

وإذا كان العبد لا يستطيع بيع نفسه بلا تحفظ لمولاه، فكيف يستطيع شعب أن يبيع نفسه بلا تحفظ لحاكمه أو رئيسه؟ وإذا ظل العبد حكما في ملاحظة عقده مع مولاه بحيث لا يتجاوز المولى حدود العقد، فكيف يحرم الشعب من مثل ذلك الحق إزاء حاكمه أو رئيسه؟).

ويقول:

(فى التشريعات الكاملة يجب أن تكون الإرادة الفردية معدومة تقريبا. وأن تكون الإرادة الحكومية محدودة جدا. وأن تكون الإرادة الشعبية أى إرادة السلطان العام للمجتمع هى السائدة على سائر الإرادات).

وبعد فإن كتاب «جان جاك روسو» إذا استثنينا عنه بعض آراء فهو بلا شك كتاب فكر. ولكن هذا الكتاب الذى أحدث هزة عنيفة فى أوروبا.. أضع أمامه فى اعتزاز وثقة من كتبنا:

* دستور الأخلاق فى القرآن

وهو موضوع رسالة الدكتوراه فى السوربون للدكتور محمد عبدالله دراز.

* (تهذيب الأخلاق والأعراف) لمسكويه

* الأخلاق عند الغزالي.

هذه أمثلة فحسب تضاف إلى ما سطره ابن خلدون وابن عربى والشيخ محمد عبده.

وهنا مفتاح لإعادة قراءة تراثنا تقسيم وتنوير ومقارنة.. والخروج من منطقة الانبهار الذى يدفعنا إليها مخطط التغريب..

أقول هذا مع إيمانى بوجوب وحتمية دراسة الحضارات كلها.. حضارات الآخرين وثقافات الآخرين ولكن دراسة الواثق بنفسه، وما أعطى. وما يملك.. فى غير انسحاق وفى غير انسياق.